



المدرسة العمرية (لم يكن شيء من أنواع البر إلا وهو موضوع في العمارة)

في العام 1156 م رحل الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة من قريته (جماعيل) التابعة لمدينة نابلس في فلسطين سراً، مهاجراً في سبيل الله، هرباً من بطش "باليان بن بارزان" الفرنسي، حاكم إقطاعية جبل نابلس، الذي قتل كثيراً من المسلمين وعذب آخرين فقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يكن في الفرنجة أعتى ولا أظلم منه، وقد صحب الشيخ في هجرته ثلاثة من أقاربه قاصدين مدينة دمشق، فنزلوا في مسجد أبي صالح، خارج باب شرقي، ضيوفاً على بني الحنبي المتولين إدارة شؤون وقف المسجد وإمامته.



ثم لحق بالشيخ خمسة وثلاثون نفساً، بينهم أولاده وبعض أحفاده وأصهاره، وتواترت هجرة آخرين إلى المكان عينه، الذي مكثوا فيه نحوً من ثلاث سنوات، ثم غادروه، إلى دير في سفح جبل قاسيون، اختاره لهم رجل صالح يدعى أحمد الكهفي. وبني القوم، في ذلك المكان المهجور، بيوتاً ثلاثة أتبعوها برابع ما فتئت تتسع بتشييد دور وحوائط ومساجد حتى عمرت المنطقة بالسكان والعلماء والزهاد، واتسعت معها شهرة بنى قدامة، وذاع صيت حديث الشيخ أحمد والمهاجرين الذين عرفوا بالتقوى والزهد والصلاح فسموا بالصالحين، وسميت المنطقة بالصالحية نسبة إليهم:

الصالحية جنة *** والصالحون بها أقاموا
فعلى الديار وأهلها ** مني التحيّة والسلام

وقد اعتزل الشيخ أحمد الناس وأثر الخلوة والعبادة، تاركاً تصريف شؤون أهله وجماعته إلى ابنه "أبي عمر"، الذي كان زاهداً مجاهداً مقداماً شجاعاً عابداً...

ترك "أبو عمر" المدرسة العمرية، التي بدأ ببنائها سنة 557 هجرية بين مسجدي محي الدين بن عربي وعبد الغني النابلسي، كما يقول الدكتور محمد مطیع الحافظ في كتابه: المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، بعد أن أرسى بنيانها ونظم نهجها الذي استقرت عليه، وبعد أن رأى إقبال الناس على عمارة الجبل والسكنى فيه، وبعد ما سمع اسم قاسيون يتحول إلى اسم الصالحية التي باتت في أقل من قرن واحد، بلدة عامرة تكتظ بالسكان وتعمر فيها المدارس التي تنشر شتى أنواع العلوم

وتقديم لكل قاصديها، من المقيمين والوافدين، ضيافة سخية تشمل المأوى الكريم والمعيشة الهانئة، في خلوات تؤوي طلاب العلم بفضل ما وقفه عليها أهل الخير من ريع وأرزاق لتفق الصالحة في وجه "تيمور لنك" وتقديم من أبنائها ما يقرب عشرة آلاف شهيد يصدونه عن غزو مدينة دمشق وتخربيها....

وقد وصف "القلاشندي" الصالحية: أنها مدينة ممتدة في سفح الجبل تشرف على مدينة دمشق وضواحيها، ذات بيوت ومدارس وربط وأسوق وبيوت جالية.

الحديث عن المدرسة العمرية، التي سميت بالشيخة أو الشيخية، متشعب وفضلها لا يمكن حصره لما هي عليه من حقيقة حضارية متميزة، أسسها الشيخ أبي عمر محمد بن قدامة المقدسي، وكانت تعد أم النهضة العلمية الرائعة التي قامت في سفح جبل قاسيون شمال غرب دمشق في المنطقة التي عرفت فيما بعد بالصالحة نسبة لصلاح الدين منشئها على أرجح الأقوال.

فيها تخرج الآلاف من الفقهاء والقراء والمحدثين، وضمت غرفها وخلاويها التي قاربت الثلاثمائة والستين ألف طالب في وقت واحد، وكان مدرسوها وشيوخها من أعظم الشيوخ، فهي أشبه بجامعة تضم كليات لمختلف فئات الطلبة وطبقاتهم ومستوياتهن.

وقد أوقف المحسنون الأوقاف الالزمة عليها لكي تفي بمتطلبات مناهجها في التعليم، وكانت من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها ولا طرائق صرفها، ولم تكن تخلو سنة إلا ويحدث فيها وقف جديد لتحقيق غاية علمية معينة. وكان الطالب لا يقبل فيها إلا بشروط معينة في مقدمها تمنعه بالسلوك الحسن والأدب والتقوى... وكان لها مكتبه خاصة بها عامرة بآلاف الكتب من كل الفنون، حتى ضمت نفائس الكتب ونواذرها.

نبذة مختصرة عن محل الصالحة في دمشق:

في كتابه (المدرسة العمرية)، تناول الدكتور مطیع الحافظ تاريخ المقادسة وهجرتهم وتأسيس الصالحة سيرة "أبي عمر" وترجم أولاده وحفدته، كما تناول تاريخ المدرسة العمرانية والعلماني والوقفي ومناهج التعليم وترجم شيوخها وطلبتها وكنوز مكتبتها التي نقلت إلى المكتبة الظاهرية ومن ثم إلى مكتبة الأسد.

المدرسة العمرية مدرسة عظيمة جمعت أقساماً متعددة لتحفيظ القرآن وعلومه، ورواية الحديث وعلومه، وتعليم الفقه ومذاهبه.

حيث تقع محل الصالحة في سفح جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق من الشمال الذي يبلغ ارتفاعه 1100 م عن سطح البحر. وفي هذه المحلة كثرت المدارس العلمية والشرعية المبنية وبشكل خاص في عهد الأيوبيين حيث اهتم الأيوبيون بالعلم والثقافة، فانتشرت المدارس في الصالحة انتشاراً ولا تزال معالماً أكثرها قائم كالمدرسة الأتابكية والدلامية والعمرية ومدرسة الصاحبة التي بنتها الأميرة خاتون أخت السلطان صلاح الدين والمدرسة الركنية في ساحة شمدین التي تضم ضريح القائد العسكري الأيوبي الأمير ركن الدين منكورس، وقد تحولت فيما بعد إلى جامع سمي باسمه، وفي الجهة الشمالية من شرق حي الأكراد تقع مقبرة الشيخ خالد النورسي النقشبendi، وهو مدفون في جامع يقع في منتصف المقبرة، كما تضم المقبرة رفات الكثير من رجالات الأكراد كجلادت بك بدرخان، وقدري جان، ومحمد بزنجي، كما دفن في الصالحة الكثير من العلماء العرب كالشيخ العلامة الموفق بن أحمد بن قدامة المقدسي صاحب المغني، ومرجح المذهب الحنفي، وكذلك أخوه الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة الذي أوقف أعظم مدرسة في دمشق وهي المدرسة العمرية وهم مقدسيون من أهالي القدس، والشيخ عبد الغني النابلسي (من نابلس في فلسطين).

وهناك مرقد للحاجة حفيظة ويقع في قبة كبيرة في موقف الميسات ومرقد الشيخ المتصرف محي الدين بن عربي ومرقد الأكراد الأيوبيية في ساحة شمددين حيث تظهر قدم رجل المدفون خارجة من القبر وهذه معجزات من المعجزات النادرة، كما أنه ومن المدارس التي اشتهرت في الصالحية المدرسة الأتابكية ودار القرآن الدلامية، كما اشتهرت دور القرآن الكريم على ضفاف نهر يزيد، حتى بلغت العشرات، و منها المدرسة العمورية التي كانت تحتوي 360 حجرة لتحفيظ وتدريس القرآن الكريم، ولا تزال فيها إلى اليوم 110 غرف سمعت أن الأوقاف تقوم بترميمها حالياً وإعدادها لتكون داراً للبحوث الإسلامية.

ويمر في الصالحية فرعان من نهر بردى مما نهر "يزيد" في حي الأكراد ، ونهر "تورا" في الصالحية ، وقد كانت الصالحية تضم سابقاً حي الأكراد، وهي الصالحية، والمهاجرين، ثم اقتصرت فيما بعد ومنذ عهد الفرنسيين على حي الصالحية.

وقد ذكرها العالمة محمد سيدو الكوراني في كتابه من عمان إلى العمادية أو جولة في كردستان الجنوبية بأنها كانت محلة واحدة وذلك في الثلاثينات من القرن العشرين وفي هذا الحي توجد منطقة اسمها: الشركسية وهي كلمة معربة عن الكلمة الكردية (جارَّكس carkes) أي الأشخاص الأربع مدفن يضم أربعة رجال مزودين بأسلحتهم الحربية كاملة..!!.

فيما تغير اسم حي الأكراد وأصبح في عهد الوحدة السورية المصرية (22/شباط/1958 – 28/أيلول عام 1961) هي ركن الدين وتمتد به ثلاثة شوارع أساسية هي:

- شارع أسد الدين
- شارع ركن الدين
- شارع صلاح الدين

ويرجع تاريخ هذا الحي إلى عام 1179 عندما عسكت قوات الأيوبيين المسلمين في قاسيون على حين عسكت قوات الصليبيين في سهل داريا والمزة جنوب غرب دمشق.

وكان في حي الأكراد في الثمانينات من القرن المنصرم وحسب إحصاء قامت به منظمة حزب الاتحاد الشعبي الكردي لمدينة دمشق 140 طبيباً وطبيبة، و14 صيدلية، ومستوصف واحد، ومشفى ضخم اسمه (مشفى ابن النفيس) كان مخصصاً للمعالجة من مرض السل وذلك لجفاف الجو في جبل قاسيون وقد تحول أخيراً إلى مشفى عام.

موقع المدرسة:

تقع المدرسة العمورية القديمة في حي الشيخ محي الدين، خارج أسوار مدينة دمشق القديمة على سفح جبل قاسيون من جهة الشرق بمنطقة حي الصالحية في وسط دير الحنابلة جنوب جامع الحنابلة - المظفرى، وتنسب المدرسة إلى مشيدتها وواقف المدرسة وبانيها الشيخ المجاهد أبي عمر الكبير أحمد بن قدامة المقدسي والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكانت أكبر مدرسة في دمشق في حينه، ونموذج للمدرسة الجامعية. 

تأسيس المدرسة:

رحل الشيخ ابن قدامة المقدسي من قريته سرآ عام 551 هـ - 1156 م مع ثلاثة من أقاربه باتجاه دمشق هرباً من القتل والتعذيب وقطع الأيدي والأرجل التي تعرض لها أبناء بلدته على يد الفرنسيين، خاصة حاكم إقطاعية جبل نابلس الطاغية الظالم بالبان بزان الفرنسي.

وعندما وصلوا إلى دمشق نزلوا في مسجد أبي صالح خارج باب شرقي، ثم لحق بالشيخ وأقاربه خمسة وثلاثون شخصاً بينهم أولاده وبعض أحفاده وأصحابه.

وتالت هجرة آخرين إلى المكان نفسه، وبقوا هناك ما يقارب الثلاث سنوات، غادروه فيما بعد إلى دير في سفح قاسيون

على نهر يزيد.

وفي هذا المكان المهجور بنوا بعض البيوت القليلة التي زاد عددها باضطرار. جرى بعدها حركة عمرانية بهمة هؤلاء الوافدين.

فأقيمت بعض الدور والحوانيت الصغيرة والمدرسة والفنون والمساجد، وعمرت المنطقة بالسكن واتسعت شهرةبني قدامة، وسمى هؤلاء القوم بالصالحين (واسم الصالحية نسبة إليهم)، وكان الشيخ ابن قدامة صالحًا وإنسانياً وأصبح من أعلام دمشق والعالم الإسلامي في عصره. توفي في الصالحية عام 607 هـ، عن 79 عاماً، ودُفن في قاسيون. كان السلطان نور الدين يزور الصالحية وأهلها ويلتقي الشيخ أحمد في المدرسة الصغيرة على نهر يزيد المجاورة للدير والفنون.

ويمكن القول إن الأساس الأول للمدرسة العمرية قد وضع في عهد نور الدين عام 555 هـ، قبل وفاة الشيخ أحمد الذي كان له دور هام وكبير ومبادر في تأسيس المدرسة، وكان موقعها على نهر يزيد، فوجد أبو عمر أن المكان مناسب، فبني المدرسة وعشرين غرفة للفقراء، ووضع تحتها مصنع الماء، وبنى الطبقتين الأخريتين من الجهة الشمالية فوق هذه الغرف العشر. كانت المدرسة العمرية تنشر شتى أنواع العلوم وتقدم لساكنيها الوافدين إليها المساعدة الممكنة، مما ساعد الصالحية على الوقوف بوجه تيمورلنك إذ قدمت الصالحية من أبنائها ما يقارب 10 آلاف شهيد يصدونه عن غزو دمشق وتخريبها.

توسيع المدرسة:

وحاول الشيخ المرادي قاضي القضاة توسيع المدرسة بعد أن ضاقت بأهلها، فبني لصيقها من الشرق مدرسة على هيئة العمارة فاتصلة بالمدرستان، وكانت هذه الزيادة الأولى.

كما تمت زيادات أخرى وأصبحت المدرسة مؤلفة من ثلاث طبقات و360 حجرة مع مرافقها، وهذا ما جعلها أكبر مدرسة في دمشق إن لم يكن في بلاد الشام.

شهرة المدرسة:

تميزت المدرسة العمرية في حينه بتطور بارز تخرج الفقهاء والقراء والمحدثين. وضمت غرفها ما يقارب ثلاثة وستين ألف طالب في وقت واحد، وكانت أشبه بجامعة تضم عدة كليات لمختلف الطلاب والفئات وكل المستويات، وكان طلابها يأكلون وينامون فيها، يوزع عليهم كل يوم ألف رغيف ويُطبخ للجميع، وتقديم لهم الفاكهة والحلوى. ومعهم جيش من الموظفين لهم رواتب وسجلات، وللطلاب سجلات وتفقد، وكان لمسؤوليتها مدير جامع في هذه الأيام.

كان للعمارة سمعة عالية عند الحكم حتى إنه إذا دخل إليها غريم لا يحق للحكام تعقبه، وإن جاء في نهرها ميت يُدفن دون مراجعتهم.

مكتب العمارة ومصيرها:

كانت مكتبة العمارة والضيائية من أعظم مكتبات مدارس دمشق على الإطلاق، وفيها عدد من الخزائن الملئه بنفائس الكتب. وعندما انحلت الضيائية نقلت كمية من كتبها إلى العمارة ثم بدأت الكتب تتسرّب من المدرسة.

فقد ذكر أن جماعة جاؤوا إلى دمشق سنة 1250 هـ، وقدموا لنظر العمارة مالاً على سبيل الرشوة، فساعدتهم على سرقة أربعة أحمال من الجمال من كتب المدرسة نقلوها ليلاً.

فصادر نصفها وذهب الآخرون بالباقي، مما حدا بالوالى العثمانى مدحت باشا إلى الأمر بجمع ما تبقى من كتبها ونقلها إلى (المدرسة الظاهرية).

وعندما سمع ناظر المدرسة بذلك انتقى أحسن كتبها ونقلها إلى داره.



قدمت اللجنة فلم تجد رجلاً واحداً يحمل الكتب حتى استعاناً بدواب القمامه ونقلوا 600 مجلد خطى ومجموعة كبيرة من (الدشت).

وقد بدأ أمر المدرسة بالانحطاط مع نهاية عصر المماليك، وعندما انتقلت نظارتها إلىبني زريق الذين عاثوا فيها فساداً، وناصر زريق أحدهم كان ناقص العقل فاسد النيه والبنية. فباع كثيراً من أوقافها وحاول إعلاقها.

المدرسة أثناء الحكم العثماني:

وعندما جاء الحكم العثماني، تراجعت أحوال البلاد عامه. واختلست معظم أراضي المدرسة. وينذكر أن قاضي دمشق عبد المحسن الأسطوانى كلف لجنة عام 1910 الطواف على مدارس دمشق ووصف حالها وما فيها من طلاب، وما تحتاج إليه من إصلاح وترميم.

فذكرت اللجنة في التعريف بالمدرسة العمرية أن فيها 110 غرف والجرارات المأهولة بالطلبة خمس، وفيها عشرون طالباً. وبباقي الغرف بيد الفقراء وحجراتها قديمة وضيقة، ولم يبق من بناء المدرسة اليوم إلا غرف الطابق الأرضي وهي غير صالحة. وقد جرت محاولات لإصلاحها وترميمها، بدأها إيكوشار عام 1942، ثم فخرى البارودي الذي جمع مبلغاً من المال (6500 ل.س)، رمم 22 غرفة من هذه المدرسة لسكن الأحداث والمشردين.

وتبيّن أن قسماً كبيراً من هذه المدرسة قد أزيل بفتح شارع واسع في جبهتها القبلية، وقسم آخر من جهة الشمال، ضمّ إلى دور السكن المجاورة، وأخر سطا على الحديقة في غربها والدير في شرقها، ولم يبق من المدرسة غير جدارها القبلي الحجري وأخر بني في غربها وشرقاً والطابق الأرضي ذهب به الشارع الجديد.

إحياء دور المدرسة:

يطالب أهالي حي المهاجرين والصالحية وركن الدين منذ سنوات بجعل هذه المدرسة بعد إصلاحها مركزاً ثقافياً للحي الذي يتسم بكثافة سكانية عالية، وبحاجة ماسة إلى مركز ثقافي يساعد على رفع الوعي في أوساط الشباب والأطفال والنساء، غير أن هذه المحاولة لم تلاق تجاوباً من المسؤولين. وفي عام 2008 جرت محاولة جديدة من قبل أهالي وسكان الحي بمناسبة إعلان دمشق عاصمة للثقافة العربية، فتقديموا بعرائض حملت مئات التوقيع تطالب الأمانة العامة بالتدخل لفتح مركز ثقافي للحي، وحددوا المدرسة العمرية مكاناً مناسباً لذلك بعد إصلاحها وترميمها.

قالوا في المدرسة العمرية:

قال الشيخ جمال الدين بن عبد الهادي: هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها والشيخ (وكانه يقصد ابن قدامه) بنى فيها المسجد وعشر خلاوي وقد زاد الناس فيها ولم يزالوا يوقفون عليها من زمنه إلى اليوم قل سنة من السنين تمضي إلا ويصير إليها فيها وقف فوقها لا يمكن حصره من جملته:

العاشر من البقاع والمرتب على داريا من القمح ستون غراره ومن الدرهم خمسة آلاف للغم في شهر رمضان ومما رأيناه وسمعنا به من مصالحها الخبز لكل واحد من المنزلين فيها رغيفان وللشيخ الذي يقرى أو يدرس ثلاثة وهو مستمر طول السنة والقمصان في كل سنة لكل منزل فيها قميص وقد رأيناه والسرويل لكل واحد سروال سمعنا به ولم نره وطعم شهر رمضان بلح و كان الشيخ عبد الرحمن ينوع لهم ذلك ويوم الجمعة العدس ثم انقطع تنوع واستمرت القمحية وزبيب وقضامة ليلة الجمعة يفرق عليهم بعد قراءة ما تيسر رأينا ووقفه دكاين تحت القلعة وكل سنة مرة زبيب وقفها تحت يد ابن عبد الرزاق خارج عن وقف المدرسة وفرا وبشوت في كل سنة وقفها أيضاً وحلوة دهنية من وقفها سمعنا بها ولم نرها.

وحصر لبيوت المجاورين مستمرة وصابون سمعنا به ولم نره وختان من لم يكن مختونا في كل سنة من الفقراء والأيتام النازلين فيها رأيناه ثم انقطع وسخانة يسخن فيها الماء في الشتاء لغسل من احتلام وكعك سمعنا به ولم نره ومشبك بعسل في

ليلة العشرين من رمضان مستمر وكنافة ليلة العشر الأول من رمضان ثم نقلت إلى النصف مستمرة. وقنديل يشع طول الليل في المقصورة للمدرسة مستمر وحلوة في الموسم في شهر رجب لوزية وجوزية وغيرها مستمرة في نصف شعبان وأضحية في عيد الأضحى مستمرة وطعم في عيد الفطر حامض وطعم لحم وهريسة ورز وحلو مستمر إلى الآن.

وقد ذكر كثير من فضلها وبركتها وبركة النازلين فيها. يقول يوسف عبدالهادي، أحد أبرز شيوخها: لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها... ويضيف محمد بن عيسى بن كان: هي مكان مبارك لا يدخله أحد إلا وجد فيه روحانية وخشية من الله، يقول ابن طولون: إنها لا تخلو من الصالحين.

ويقول الشيخ علي الطنطاوي: يرحمه الله كان فيها كلية للقرآن وقراءته وعلومه وقسم خاص للمكفوفين وقسم للأطفال، وإن الدراسات والتلاوات كانت تستمر طوال الليل والنهار، وكان فيها خزائن عدة فيها الكثير من نفائس الكتب، وكان طلابها يأكلون وينامون فيها، ويوزع، في كل يوم، ألف رغيف، ويطبخ للجميع وتقدم لهم الفواكه والحلوى، ومعهم جيش من الموظفين لهم مرتبات وسجلات، وللطلاب سجلات وتفقد، وكان لشيخها رتبة مدير جامعة في هذه الأيام.

ويمكن من خلالها تصور الحياة العلمية والثقافية في دمشق قبل ثمانية قرون مضت. يسكنها اليوم أي في بدايات القرن العشرين قوم من ذوي المترفة ويمر بها نهر يزيد وداخلها مدرسة لطيفة وبهما ما يقرب من تسعين خلوة، وقد كان بها خزانة كتب لا نظير لها فلعلت بها أيدي المختلسين إلى أن أتى بعض الطلبة النجدين فسرق منها خمسة أحمال جمل من الكتب.... وفر بها!!

ثم نقل ما بقي وهو شيء لا يذكر بالنسبة لما كان بها إلى خزانة الكتب في قبة الملك الظاهر في مدرسته الظاهرية ، وكذلك لعلت أيدي المختلسين في أوقافها فابتلاعوها!!!! هذه حالتهااليوم.

وأما حالتها في أبان صباها وشبابها فقال عز الدين هي بالجبل في وسط دير الحنابلة وقال ابن كثير وقف عليها سيف الدين بكتمر درسا وقال ابن الزملکاني أن احمد بن زريق المعروف بابن الديوان وسع مدرسة أبي عمر من الجهة الشرقية ويمكن أن تكون هي المدرسة الصغيرة داخلها انتهى.

قلت: وجميع هذه المرتبات درست.... وانقرضت.... وماتت بموت أهلها.... وكان يقال: لم يكن شيء من أنواع البر إلا وهو موضوع في العمارة....

ثم لم تزل الأيام تأتي على أوقافها... ومرتباتها.... بالنقصان إلى أن تولى نظرها الشهاب أحمد المنيني... ثم صارت في زمننا... إلى توفيق المنيني من ذريته... فابتلاع الوشن الذي يبقى من أوقافها... وأهلكها هلاكا لا يرجى له برء. وصف هذا الحي أدق وصف فضيلة شيخنا الفاضل علي الطنطاوي - طيب الله ثراه ورحمه في واسع رحمته في كتابه دمشق صور. من جمالها فقال فيه... هذا الحي العظيم الذي يُعدُّ هو وحي الأكراد ربع دمشق. كان أثراً من آثار لاجئ من أرضنا المباركة بفلسطين من بلاد الشام، نزح من بلدته هرباً بيده من الصليبيين، كما هرب إخواننا اليوم بدنياهم من اليهود الشاذون الأفقاء، ونزل المسجد كما نزلوا وجاء بلا ثروة ولا مال كما جاءوا، ولكنه صنع هو وأسرته العجب العجب.

أفضلوا على دمشق بيئاً ودنيا، وأعطوها أكثر مما أخذوا منها، أعطوها حياً جديداً من أحياها لبث قرون، وهو الآن أجمل أحياها منظراً.. وأصحتها هواء.. وأكثرها مدارس ومعاهد.. لا هو حي الصالحة.

نشروا في الحديث والمذهب الحنفي، وأنهضوا دمشق نهضة علمية رائعة، تركوا مؤلفات عظاماً هي المراجع الأولى في موضوعها.

وأنشأوا من المدارس ما تعجز عن إنشائه دولة وكان من هذه المدارس جامعة، جامعة كاملة بالمعنى المعروفاليوم، بقيت إلى عهد قريب، وكان من عجائب أمرهم نشر العلم في النساء، حتى ظهر منهم وظاهر في عصرهم من العالمات والمحاذفات ما لا أعرف مثله في عصر آخر.

مخطط المدرسة العمرية:

المدرسة مؤلفة من طابقين، العلوي للخلاوي من الفقراء.

أما الميضاة بناها جهة القبلة وتحت الخلاوي، أي في الطابق الأسفل، وضمت المدرسة حرماً وأبواب مطلة على الشرق والغرب، وباباً كبيراً من جهة الغرب، وفيها مقصورة كبيرة لقراءة القرآن ليلاً.

وبنيت في المدرسة خزائن جدارية لوضع المصايف والكتب، وأمام الباب الغربي فسحة بها بئر معلق عليها سطل من نحاس للشرب.

وكان الصحن مبطلاً بحجر أسود ومزي، وفيه بئر ماء وسقاية، وقبالة الزاوية الغربية صفة لتفريق اللحم والخبز، وبالطريق الغربي يوجد المطبخ والميضاة الكبرى.

هذا وقد كان للمدرسة دور اجتماعي كبير بالإضافة للدور العلمي البارز، فقد لعبت دوراً هاماً في ترابط المجتمع لذلك العصر، وسبب تسميتها بالشيخة لمؤسسها وبانيها الذي كان يلقب بشيخ الإسلام «أبو عمر»، أما الشيخية: لأنها رئيسة المدارس جميعها وهذه الأقسام والأجزاء التي تجولنا فيها جعلها في مصاف الجامعات الحديثة، فهي من أقدم المراكز التي حققت السكن الداخلي للطلاب، وتوفير حاجياتهم ومتطلبات عيشهم، من طعام وشراب وكساء ونظافة.

أوقاف المدرسة العمرية:

إن دراسة أوقافها يعطينا صورة عن النظام المالي ورعايته، والذي سيكون له الأثر البالغ في حي ومجتمع الصالحة لعدة قرون.

بدأت أوقاف هذه المدرسة منذ عصر بانيها أبو عمر -رحمه الله-. حيث يقول لنا عبد الهادي أحوال أحوال أوقافها فيقول: «هذه المدرسة عظيمة، لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها، والشيخ بنى فيها المسجد وعشرين خلواتي فقط، وقد زاد الناس فيها ولايزالون يوقفون عليها من زمنه إلى اليوم». أي عصره -قلما تمضي سنة من السنين إلا ويصير إليها فيها وقف، فوقفها لا يمكن حصره حتى صار من كل أنواع البر إليها» النعيمية / الدارس في تاريخ المدارس.

أهم موارد وقفها:

1- ما يدفعه المتبرعون والمحسنون من نقود ومواد عينية.

2- العشر في البقاع - أي اللبناني - ولا غرابه فهناك علاقة بين مقادسة الصالحة ومقادسة لبنان ولاسيما (بعلبك وبونين).

3- وقف كفر بطنا - ووقف داريا.

4- من الدراما خمسة آلاف للغنم في شهر رمضان.

5- السوق المعروف بعمارة الإخنائي غربي شمال باب الفراديس.

6- ألفاً رغيف تفرق كل يوم.

أما التوزيع والاستفادة من الوقف: منهم النازلون فيها من المدرسوں والملقوں والمعيدوں والمکفوفوں وأفراد من المجتمع الصالحانی.

واللافت للنظر أن هذه الأوقات ليست وقفًا لطلبة العلم والفقراء، وإنما أصبحت تقوم بدور اجتماعي يشبه دور المؤسسات والجمعيات المعاصرة.

أعرفتم لماذا قال الشيخ علي الطنطاوي والذي [سبقت زمانها..] رحمة الله.

فأي عزيمة وهمة إيمانية حتى بلغت قوله سبقت زمانها في الجوهر والمضمون، وذاع صيتها البلاد.. رحمهم الله، ورضي الله عنهم، وجعلنا لهم خير خلف اللهم آمين نعود نكمل جولتنا الروحية لهذه المدرسة العظيمة، الأثر والفائدة.

ما هي مناهج هذه المدرسة؟

والمقصود بذلك هو سير العملية التعليمية والذي يعتمد على الأستاذ والطالب والمقرر أي المادة العلمية. لقد قدمت المدرسة العمرية تراث حضاري للأمة الإسلامية، لم يقتصر هذا التراث على الناحية الفكرية العلمية، وإنما على الناحية العمرانية والسكانية، فمن آثار النشاط العلمي وازدهاره، نشط المجتمع الصالحي، فكثر بناء المدارس وظهر التنافس المحمود بين السكان، وسوف نقوم بسرد هذا التنوع العلمي وكيف ازدادت أعداد المدارس في تلك الفترة، وهذا الفضل بعد الله عزوجل يعود لهذه الأسرة المباركة آل قدامة، ولينة الصدق والإخلاص التي ترعرعت ونشأت في قلوب الأبناء والأحفاد بسقاية الشيخ الكبير رحمة الله أحد بن قدامة.

أما عن المدرسة العمرية، والتي قام فيها أشهر المدرسين وأقدمهم في ذلك العصر نذكر منهم:

الحافظ العلامة الشيخ عبد الغني المقدسي، والفقیہ عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان المقدسي الحنبلي، وهذا تلميذ الموفق.

ومنهم الفقيه عز الدين عبد العزيز بن عبد الملك المقدسي الحنبلي، تلميذ الموفق. ونجم الدين أحد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي، والقاضي شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر ابن مؤسس المدرسة، كان عالماً بالفقه. ومن الملاحظ أن الشيخ أبو عمر مؤسس هذه المدرسة لم يكن من أول المدرسين في هذه المدرسة، والسبب في ذلك لارتباطه الاجتماعي وال رسمي الذي كان يقوم به باسم المقاصدة هذه أولاً، ومشاركته في الجهاد ضد الفرنج، والسبب الأخير شغله في النظر لأوقاف هذه المدرسة والإشراف عليها.

والخلاصة في هذا الكلام أن أبو عمر - رحمة الله - مؤسس هذه المدرسة كان بمثابة مدير للمدرسة تربوياً ومالياً، كرئيس جامعة في عصمنا، ولذلك فقد حظي بمدح ودعاء كبير من جاء من بعده، وصوّلاً للشيخ علي الطنطاوي رحمة الله، وتأسفه: «فهل نسيهم أهل دمشق وهم أهل وفاء».

أما الطلاب:

فقد تمعنوا برعاية كبيرة على الصعيد المادي - العلمي - النفسي.

والعنصر الثالث والأهم في سير العملية العلمية والتربوية، هي المادة العلمية. كيف كانت وعن ماذا؟

لقد اعنت المدرسة وبإشراف أبو عمر - رحمة الله - بكل فنون العلم، لاسيما الشرعي. لم يقتصر التدريس على الفقه الحنبلي، إنما على المذاهب الأربع، وحرص بنو قدامة على تعليم الصغار القرآن الكريم، وكان لهم متخصصون بالإقراء. فازداد عدد القراء في الصالحة ثم في دمشق حفظها الله، وكان من العلماء الذين يتواجدون إلى هذه المدرسة بعد رحلاتهم العلمية خارج الشام، ومورياتهم لما سمعوا ورأوا الأثر العظيم في زيادة النشاط وازدهارها.

وتتنوعت العلوم في هذه المدرسة كالحديث والسيرة والعقيدة والقصص واللغة ومجالس الأشعار ومجالس النظر.

ومع الأيام نالت هذه المدرسة العمرية شهرة عالمية لم يكن لغيرها هذا الصيت، كانت بمثابة أكاديمية تستقطب الناس بمدرسيها وبمدادهم العلمية الغنية التي كانوا يدرسونها، وزيادة على ما سبق المكتبة التي أسسها هذا الشيخ الفذ أبو عمر

رحمه الله والتي من صدق وإخلاص توجهه في إنسائها أصبحت معلماً من معالم الثقافة الهامة لما ضمت من كتب ومصادر هامة وساهم هذا الشيخ وغيره من العلماء في إثرائها وإغنائها حتى نالت هذه الخطوة الهامة في العالم بأثره لذلك العصر.

وهذه المكتبة في بداياتها كانت ينسخ فيها المصاحف يدوياً، ونسخ الكتب بأعداد كبيرة من الشيخ أبو عمر رحمه الله، ثم أخذ بقية العلماء يحذو حذوه بدون أجر مادام الأجر المضاعف سيناله عندما يلقى الله عزوجل رحمهم الله وجزاهم الخير كلهم.

المصادر:

- 1- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- 2- موقع الدرر الشامية
- 3- موقع حملات التمدن
- 4- موقع رواق الجنابلة
- 5- مجلة الوعي الإسلامي
- 6- موقع نبض سوريا
- 7- نسيم الشام - الباحثة نبيلة القوصي

المصادر: